

نسب النبي - ﷺ - وأسرته

نسب النبي ﷺ :

لنسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء : جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان ، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف فيه وقائل به ، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام ، وجزء لا نشك أن فيه أموراً غير صحيحة ، وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليها السلام ، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا ، وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة :

الجزء الأول : محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب - واسمه شيبه - بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبدمناف - واسمه المغيرة - بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النضر - واسمه قيس - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسمه عامر - بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(١) .

الجزء الثاني : ما فوق عدنان ، وعدنان هو ابن أد بن هميص بن سلامان بن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عيص بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربي بن يحزن بن يلحن بن أرعوي بن عيص بن ديشان بن عيص بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمي بن مزي بن عوضه بن عرام بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليها السلام^(٢) .

الجزء الثالث : ما فوق إبراهيم عليه السلام ، وهو ابن تارح - واسمه أزر - بن ناحور بن ساروع - أو ساروغ - بن راعوب بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح - عليه السلام - بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ - يقال هو إدريس

(١) ابن هشام ٢٠١/١ . تلقيح فهوم أهل الأثر ٦٠٥ ، رحمة للعالمين ١١/٢ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٥٢ .
(٢) قد جمع العلامة محمد سليمان المنصورفوري هذا الجزء من النسب برواية الكلبي ، وابن سعد بعد تحقيق دقيق . انظر رحمة للعالمين ١٤/٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وفيه اختلاف كبير بين المصادر التاريخية .

عليه السلام - ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوشة بن شيث بن آدم عليها السلام .

الأسرة النبوية:

تعرف أسرته صلى الله عليه وآله بالأسرة الهاشمية - نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف - وإذن فنذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده .

١ - هاشم - وقد أسلفنا أن هاشماً هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما ، وهاشم كان اسمه موسراً ذا شرف كبير ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمي هاشماً إلا لهشمه الخبز ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قوم بمكة مستنين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأضياف

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجراً ، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار ، وأقام عندها ، ثم خرج إلى الشام - وهي عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين ، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م ، وسمته شيبه لشيبه كانت في رأسه^(١) ، وجعلت تربيته في بيت أبيها في يثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة وكان لهاشم أربعة بنين وهم : أسد ، وأبو صيفي ، ونضلة ، وعبد المطلب . وخس بنات وهي : الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وجنة^(٢) .

٢ - عبد المطلب - قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفاً مطاعاً ذا فضل في قومه ، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبه - عبد المطلب - وصيفاً أو فوق ذلك سمع به المطلب . فرحل في طلبه ، فلما رآه فاضت عيناه ، وضمه ، وأردفه على راحلته ، فامتنع حتى تأذن له أمه ، فسألها المطلب أن ترسله معه ، فامتنعت فقال :

(١) ابن هشام ٢/١ ، ٣ ، ٤ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦ ، خلاصة السير للطبري ص ٦ ، ورحمة للعالمين

١٨/٢ واختلفت هذه المصادر في تلفظ بعض هذه الأسماء ، وكذا سقط من بعض المصادر بعض الأسماء .

(٢) ابن هشام ١/١٣٧ ، رحمة للعالمين ١/٣٦ ، ٢/٢٤ .

(٣) ابن هشام ١/١٠٧ .

إنما يمضي إلى ملك أبيه ، وإلى حرم الله ، فأذنت له ، فقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس : هذا عبد المطلب ، فقال ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم .. فأقام عنده حتى ترعرع ، ثم إن المطلب هلك بردمان من أرض اليمن ، فولى بعده عبد المطلب ، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم^(١) .

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح عبد المطلب فغصبه إياها ، فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه ، فقالوا لا ندخل بينك وبين عمك . فكتب إلى أخواله من بني النجار أبياتاً يستنجدهم ، وسار خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين راكباً ، حتى نزل بالأبطح من مكة ، فلتقاه عبد المطلب ، فقال : المنزل ، يا خال ! فقال : لا والله حتى ألقى نوفلاً ، ثم أقبل فوقف نوفل ، وهو جالس في الحجر مع مشايخ قريش ، فسئل أبو سعد سيفه وقال : ورب البيت لئن لم ترد على ابن أختي أركاحه لأمكنن منك هذا السيف ، فقال : رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثاً ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ، فلما جرى ذلك حالف نوفل بني عبد شمس بن عبد مناف على بني هاشم ، ولما رأت خزاعة نصر بني النجار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كما ولدتموه ، فنحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة ، وحالفوا بني هاشم على بني عبد شمس ونوفل ، وهذا الحلف الذي صار سبباً لفتح مكة كما سيأتي^(٢) .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيثان^(٣) :
حفر بئر زمزم ووقعة الفيل .

وخلاصة الأول أنه أمر في المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام يحفر ، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أي السيوف والدروع والغزاليين من الذهب ، فضرب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزاليين ، وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له : أشركنا قال ما أنا بفاعل ،

(١) ابن هشام ١/١٣٧، ١٣٨ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٤١ ، ٤٢ .

(٣) ابن هشام : ١/١٤٢ - ١٤٧ .

هذا أمر خصصت به، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بني سعد، ولم يرجعوا حتى أراهم الله في الطريق ما دلهم على تخصيص عبد المطلب بزمام، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعه لينحرن أحدهم عند الكعبة.

وخلاصة الثاني أن أبرهة الصباح الحبشي، النائب العام عن النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعدرة. ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندي - إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة، وكان في الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلاً، وواصل سيره حتى بلغ المعمس، وهناك عبأ جيشه، وهبأ فيله، وهبأ لدخول مكة، فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقدّم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقول يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينما هم كذلك إذ أرسل الله ﴿عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحداً إلا صار تنقطع أعضاؤه، وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض فتساقطوا بكل طريق، وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء نساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب وتحرزوا في رؤوس الجبال، خوفاً على أنفسهم من معرفة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين^(١).

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يوماً أو بخمسة وخمسين يوماً - عند الأكثر - وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١م، وكانت مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، لأننا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله تسلطوا على هذه القبلة، وأهلها مسلمون كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ ق.م، والرومان سنة ٧٠م، ولكن الكعبة لم يسيطر عليها النصارى - وهم المسلمون إذ ذاك - مع أن أهلها كانوا مشركين.

(١) ابن هشام ٤٣/١ إلى ٥٦، تفهيم القرآن ٦٦/٤٦٢ إلى ٤٦٩.

وقد وقعت هذه الواقعة في الظروف التي يبلغ نبأها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك، فالخبشة كانت لها صلة قوية بالرومان، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم، ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الواقعة، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر. فهذه الواقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله، وأنه هو الذي اصطفاه الله للتقديس، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الواقعة، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التي كانت في نصرة الله المشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب.

وكان لعبد المطلب عشرة بنين، وهم: الحارث والزبير وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وصفار، والعباس، وقيل: كانوا أحد عشر، فزادوا ولداً اسمه قثم، وقيل: كانوا ثلاثة عشر، فزادوا عبد الكعبة وحجلاً، وقيل: إن عبد الكعبة هو المقوم، وحجلاً هو الغيداق ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم، وأما البنات فست وهن: أم الحكيم - وهي البيضاء - وبيرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة^(١).

٣ - عبدالله والد رسول الله ﷺ - أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمينونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فكتب أسماءهم في القداح، وأعطاهم قيم هبل، فضرب القداح فخرج القداح على عبدالله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش ولاسيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضي ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبدالله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبدالله فلم يزل يزيد من الإبل عشراً عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فنحرت عنه، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنها إنساناً ولا سبعاً، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشراً من الإبل، فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام،

(١) تلقح فهوم أهل الأثر ص ٨، ٩، رحمة للعالمين ٢/٥٦، ٦٦.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يعني إسماعيل، وأباه عبدالله (١).

واختار عبد المطلب لولده عبدالله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، وأبوها سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فبنى بها عبدالله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمياً، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجراً إلى الشام، فأقبل في غير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفي بعد مولده بشهرين (٢). ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت:

عفا جاب البطحاء من ابن هاشم	وجاور لحداً خارجاً في الغمام
دعته المنايا دعوة فأجابها	وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره	تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تك غالته المنايا وربها	فقد كان معطاء كثير التراحم (٣)

وجميع ما خلفه عبدالله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ (٤).

(١) ابن هشام ١٥١/١ إلى ١٥٥، رحمة للعالمين ٨٩/٢، ٩٠ مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله ص ١٢، ٢٣، ٢٢.

(٢) ابن هشام ١٥٦/١، ١٥٨، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٥، رحمة للعالمين ٩١/٢.

(٣) طبقات ابن سعد ٦٢/١.

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٢، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ صحيح مسلم ٩٦/٢.

المولد وأربعون عاماً قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصورفوري والمحقق الفلكي محمود باشا^(١).

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام، وروى أحمد عن العرياض بن سارية ما يقارب ذلك^(٢).

وقد روي أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخذت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك البيهقي^(٣) ولا يقره محمد الغزالي^(٤).

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفاً في العرب - وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون^(٥).

وأول من أرضعته من المراضع - بعد أمه ﷺ - ثوية مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي^(٦).

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٢/١، رحمة للعالمين ٣٨/١، ٣٩ واختلافهم في تعيين تاريخ أبريل فرع للاختلاف في التقويمات الميلادية.

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبدالله النجدي ص ١٢ وابن سعد ٦٣/١.

(٣) نفس المصدر الأول.

(٤) انظر فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٦.

(٥) ابن هشام ١٥٩/١، ١٦٠، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٢/١ وقيل إنه ولد مختوناً، انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. انظر زاد المعاد ١٨/١.

(٦) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤، مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبدالله النجدي ص ١٣.

في بني سعد :

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم، ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر؛ لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ الرضعاء، واسترضع له امرأة من بني سعد ابن بكر - وهي حليلة بنت أبي ذؤيب - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة، من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة عبدالله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشفاء - لقب غلب على اسمها -) وكانت تحضن رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ.

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليلة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين، من جهة ثوية، ومن جهة السعدية^(١).

ورأت حليلة من بركنه ﷺ ما قصت منه العجب، ولتركها تروي ذلك مفصلاً :

قال ابن إسحاق: كانت حليلة تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لي قمرأ، معنا شارف لنا، والله ما نبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثدي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجدته! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذه. قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه، فأخذته، وما حلني على أخذه إلا أني لم أجد

(١) زاد المعاد ١/١٩.

غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم نام، وما كنا ننم معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة! لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حرهم، حتى إن صواحي ليقطن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول هن: بلى والله! إنها لهي هي، فيقطن: والله إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً، قالت: فقدنا به على أمه ونحن أحرص على مكته فينا، لما كنا نرى من بركنه، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى رده معنا^(١).

وهكذا بقي رسول الله ﷺ في بني سعد، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة^(٢) من مولده وقع حادث شق صدره، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون^(٣).

(١) ابن هشام ١/١٦٢، ١٦٣، ١٦٤.

(٢) هذا ما ذهب إليه عامة أهل السير، ويقضي سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع في السنة الثالثة، انظر ابن

هشام ١/١٦٤، ١٦٥.

(٣) صحيح مسلم، باب الإسراء ١/٩٢.

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة حتى ردت به إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين^(١).

ورأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة قطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلومتراً، ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبدالمطلب، فمكثت شهراً، ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ يلاحقها المرض، ويلح عليها في أوائل الطريق، فهاتت بالأبواء بين مكة والمدينة^(٢).

إلى جده العطوف:

وعاد به عبدالمطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم، الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحده المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان بوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله إن له لساناً، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع^(٣).

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبدالمطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أي طالب شقيق أبيه^(٤).

إلى عمه الشفيق:

ونفض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده، وقدمه عليهم، واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها.

(١) تلقيح فهو أهل الأثر ص ٧، ابن هشام ١/١٦٨.

(٢) ابن هشام ١/١٦٨، تلقيح فهو أهل الأثر ص ٧، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٣/١، فقه السيرة للغزالي ص ٥٠.

(٣) ابن هشام ١/١٦٨.

(٤) تلقيح فهو أهل الأثر ص ٧، ابن هشام ١/١٦٩.

يستسقى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قثاء، حوله أغليمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي وأخضب النادي والبادي، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(١)

بحيرا الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة - قيل وشهرين وعشرة أيام^(٢) - ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام، حتى وصل إلى بصرى - وهي معدودة من الشام وقصبة حوران، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان - وكان في هذا البلد راهب عرف ببحيرا واسمه جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم، وأكرمهم بالضيافة، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال أبو طالب: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخرّ ساجداً، ولا تسجد إلا لني، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وأنا نجدته في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام، خوفاً عليه من اليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانته إلى مكة^(٣).

حرب الفجار:

ولخمس عشرة من عمره ﷺ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سنأ

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبدالله النجدي ص ١٥، ١٦.

(٢) قاله ابن الجوزي في تلقيح فهم أهل الأثر ص ٧.

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبدالله النجدي ص ١٦، وابن هشام ١/١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ووقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالاً (تحفة الأحوذى) وهو من الغلط الواضح، فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً، وإن كان موجوداً فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر. زاد المعاد ١/١٧.

وشرفاً، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس. وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمت الحرم والأشهر الحرم فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي (١).

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام، تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبدالله بن جدعان التيمي لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حر النعم، ولو أدعي به في الإسلام لأجبت (٢).

وهذا الحلف روجه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها، ويقال في سبب هذا الحلف إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار، ومخزوماً، وجحاً، وسهماً، وعدياً، فلم يكثرثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبدالمطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف (٣).

حياة الكدح:

ولم يكن له عمل معين في أول شبابه، إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنماً، رعاها في بني سعد (٤)، وفي مكة لأهلها على قراريط (٥) وفي الخامسة والعشرين من

(١) ابن هشام ١/١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، قلب جزيرة العرب ص ٢٦٠، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٦٣.

(٢) ابن هشام ١/١١٣، ١٣٥، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٣٠، ٣١.

(٣) نفس المصدر الأخير ص ٣٠، ٣١.

(٤) ابن هشام ١/١٦٦.

(٥) فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٥٢.

سنة خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام^(١).

زواجه خديجة:

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين. وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها، فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية، وهذه ذهبت إليه ﷺ فتفاحت أن يتزوج خديجة، فرضي بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة، وخطبوا إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها عشرين بكرة، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت^(٢).

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم، ولدت له أولاً القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة وعبدالله، وكان عبدالله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ، سوى فاطمة رضي الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر، ثم لحقت به^(٣).

(١) ابن هشام ١، ١٨٧، ١٨٨.

(٢) ابن هشام ١، ١٨٩، ١٩٠، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٥٩، تليق فهم أهل الأثر ص ٧.

(٣) نفس المصدر الأول ١، ١٩٠، ١٩١، والثاني ص ٦٠، وفتح الباري ٧/٥٠٧ وبين المصادر اختلاف يسير أخذنا ما هو الراجح عندنا.

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة، وذلك لأن الكعبة كانت رضاءً فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثراً قديماً - للعوادي التي أوهت بنيانها، وصدعت جدرانها، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم، انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها، واتفقوا على أن لا يدخلوا في بنائها إلا طيباً، فلا يدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ في البناء، فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءاً منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بناء رومي اسمه باقوم، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليالٍ أو خمساً، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناك، هذا محمد. فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء، فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضي به القوم.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة.

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً، وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠، ١٠ م، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠ م من أرضية المطاف. والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قسبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها

٢٥، ٣٠ م ومتوسط عرضها ٣٠، ٣٠ م وتسمى بالشاذروان، وهي من أصل البيت لكن قريشاً تركتها^(١).

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

إن النبي ﷺ كان قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناء الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشؤون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسناً شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيداً، ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الخلف باللات والعزى^(٢).

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها، روى ابن الأثير « قال رسول الله ﷺ : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب! فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً، فقلت ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع. فضرب الله على أذني فنتمت، فما أيقظني إلا حر الشمس. فعدت إلى صاحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة.. ثم ما هممت بسوء^(٣) ».

(١) انظر في تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٩٢/١٢ إلى ١٩٧، وفقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٦٢، ٦٣، وصحيح البخاري باب فضل مكة وبنائها ٢١٥/١، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٤/١، ٦٥.

(٢) يدل عليه كلامه مع مجيراً. انظر ابن هشام ١٢٨/١.

(٣) اختلفوا في صحة هذا الحديث فصحه الحاكم والذهبي وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٢٨٧/٢.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزاري، إزاري، فشد عليه إزاره^(١) وفي رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك^(٢).

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأعزهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وألينهم عريكة، وأعفهم نفساً، وأكرمهم خيراً، وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وأمنهم أمانة، حتى سماه قومه «الأمين»؛ لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق^(٣).

(١) صحيح البخاري باب ببيان الكعبة ٥٤٠/١.

(٢) نفس المصدر مع شرح القسطلاني.

(٣) صحيح البخاري ٣/١.